

قسم الآثار والدراسات اليونانية والرومانية
الفرقة الأولى

مادة : مواقع أثرية
أ.د/ عبير قاسم

المحاضرة (٦)

مواقع أثرية من وادي النطرون
(جزء ١)



تاريخ وادي النطرون:

كان لهذه المنطقة التي تسمى بوادي النطرون أهمية كبيرة في عهد الفراعنة، حيث كان الملح يُستخرج من هذه الأرض، وهذا الملح هو الذي كانوا يستعملونه حتى يحنطوا موتاهم به، أيضاً فإن هذا الوادي كان قد اكتسب التقديس، حيث مرّت العائلة المقدسة من هذه المنطقة، ولوادي النطرون العديد من الأسماء الأخرى غير هذا الاسم منها شيهيت، وبئر هوكر، وحقل الملح وغير هذه الأسماء. أيضاً تتميز هذه المنطقة بأن فيها كان التجمع المسيحي الأول، وكان هذا التجمع هو تجمع رهباني، وقد عقد هذا التجمع بعد أربعة قرون من ميلاد السيد المسيح – عليه السلام -. كان التجمع الأول على يد مؤسس دير الأنبا مقار، مقار الكبير. وهذا الدير هو دير قائم إلى يومنا هذا، ويجاوره ثلاثة أديرة أخرى غيره، وهذه الأديرة هي دير البراموس، ودير السريان، ودير الأنبا بيشوي. وكان في هذه المنطقة لوحدها ما يقترب من ٧٠٠ ديراً في القرن ٤م. من هنا فإن هذه المنطقة لها قدسية خاصة عند الطائفة القبطية الأرثوذكسية المصرية.

مقدمة عامة عن الأديرة القبطية وعمارتها:

العناصر المعمارية

١- السور Enclosure Wall .

٢- الحصن

٣- الكنيسة

٤- القلاوي Cells .

٥- حجرة المائدة Refectory .

عمارة الكنائس القبطية

١- الطراز البازيليكي

٢- الطراز البيزنطي

٣- الطراز القبطي

الوصف المعماري للأديرة الأربعة بوادي النطرون



(١) دير الأنبا مقار



نبذة عن القديس مقاريوس:

انحدر القديس مقاريوس من شمال وادي النطرون إلى أقصى جنوبه بعد أن اكتظت المنطقة الشمالية بالمتوحدين وكان قد ابتدئ لهم كنيسة وترك لهم تلميذه بفنوتيوس يدبر حياتهم. وكان ذلك حوالي سنة ٣٦٠م. حينما كان عمره قد بلغ الستين عاماً.

وهنا في جنوب الوادي وعلى طرف السطح الصخري حفر لنفسه مغارة ذات سرداب طويل ينتهي بمغارة أخرى سرية يلتجئ إليها، ليتحاشى مقابلة الزائرين، لأنه كان محباً للوحدة والسكون إلى أقصى حد ، وسرعان ما تكاثرت تلاميذه وتجمعوا في مجموعات وبنوا مساكن متفرقة تدعى "منشوبيات" وهي كلمة قبطية تفيد معنى السكن التجمعي أو الفردي. وقد بدأوا فرادى ثم ازداد عددهم جداً حتى صاروا عدة ألوف.

أهم المعالم الأثرية في دير أنبا مقار

اكتشف أثناء الحفر بعض الأجزاء المعمارية والقطع الرخامية الأثرية القيمة التي كانت مطموسة داخل الأسوار أو خلف الطبقات الحديثة من البياض الجبسي السميك أو تحت التراب.

و عند الدخول الدير والنزول على السلالم الكبيرة للوصول إلى كنيسة أنبا مقار ، يتم العبور من تحت قوس أثري عظيم من الطوب الأحمر الجميل، وهو عبارة عن مقصورة arch ضخمة، كانت هي المدخل البحري القديم لكنيسة أنبا مقار فيما قبل القرن التاسع، ويرجح أنها من القرن السابع لأنها على نمط مقصورة هيكل أنبا بنيامين الذي أقيم في زمان البابا بنيامين (البطريك ٣٨) في منتصف القرن السابع، أي يقدر عمرها بأكثر من ١٣٠٠ سنة.

(١) كنيسة أنبا مقار

١ - هيكل أنبا مقار

هو عبارة عن أثر خالد بدأت نواته الأولى سنة ٣٦٠م جذب إليها الأجيال المتلاحقة، والذي منه انطلقت إلى السماء مئات الألوف من النفوس التقية لتكميل شهادتها للمسيح في السماء بعد أن شهدت في الأرض.

أعيد بناؤها في أيام البابا بنيامين (البطريك ٣٨) في زمن دخول العرب، ودشنها هذا البابا بدعوة من شيوخ البرية سنة ٦٥٥م.

ولا يزال هيكلها الكبير المعروف بهيكل أنبا مقار بقبته الضخمة قطر ٨متر على طوبة واحدة، ويدعى أيضاً باسم "هيكل أنبا بنيامين" منذ يوم دشنه حتى اليوم.

ولكن قبته تساقطت عدة مرات ورُممت عدة مرات، والناظر إليها بتدقيق يستطيع أن يعد مرات السقوط والترميم لاختلاف لون "المونة". والكنيسة الآن لا تحمل من أجزائها الأثرية الأولى سوى هيكل أنبا بنيامين وهيكل يوحنا المعمدان (أو مارمرقس) فقط.

٢- هيكل يوحنا المعمدان (أو مارمرقس)

سمى كذلك لأن جسد يوحنا المعمدان الذي حُمل من فلسطين في أيام القديس أنبا أنثاسيوس الرسولي، ودُفن في الإسكندرية، ثم نُقل منها ودُفن في دير أنبا مقار أيام الإضطهاد. وقد عثر أثناء حفر أرضية الخورس الأول وأمام هذا الهيكل وعلى مسافة تحت الأرض على قبو من الطوب القديم وتعمقنا أسفله فوجدنا هذه الرفات الطاهرة ورفعناها مع باقي عظام أخرى وتابوت به هيكل جسدي كامل.

ولما حُملت رأس القديس مارمرقس ودُفنت في هذا الهيكل، حملت الكنيسة كرامة رسولية من ذلك التاريخ وسميت بالكنيسة الجامعة. وأصبح إسم مارمرقس يتبادل مع إسم يوحنا المعمدان لهذا الهيكل.

والباحث المدقق يلاحظ تلازم وجود جسدي يوحنا المعمدان ومارمرقس الرسول في هيكل واحد في دير القديس أنبا مقار، يرادفه توارد هذين الإسمين الكريمين في القداس في بداية المجمع، مما يشير إلى أن "المجمع" من وضع رهبان دير القديس أنبا مقار. ولا تزال الصور الرائعة التي زُيّن بها هيكل يوحنا المعمدان تحتفظ بألوانها الزاهية ودقتها المتناهية رغم سقوط قبته وبقائه في العراء عدة مئات من السنين.

٣- كنيسة الشهداء التسعة والأربعين شيوخ شيهات:

كانت في الأصل جزءاً من الأجزاء الغربية لكنيسة القديس أنبا مقار، أما من حيث المحتوى، فقد جمعت جواهر ثمينة لا تقدر بمال.

فهذه الكنيسة تحمل ذكرى إيمان حي وشهادة بسفك الدم في الغارة الثالثة على الدير، لما هجم عربان البادية على الرهبان، هرب معظمهم وتحصنوا في الجوسق - أي الحصن - ورفعوا السقالة. ولكن تسعة وأربعين من الرهبان القديسين تشجعوا بالإيمان وقهروا الخوف ورفضوا النجاة مع رئيسهم العظيم المكرم أنبا يؤانس القمص، ووقفوا باستعداد تقديم الشهادة، فلما طُلبت قدموا رقابهم سهلة طائعة للسيوف اللامعة دون أدنى إنزعاج، لأنهم رفضوا النجاة بغية قيامة أفضل وحياة أفضل ...

٤- قبة الميرون:

أثر جليل القدر يحكي عن ميرون دير القديس أنبا مقار، وكيف حلت به البركة على كل مولودي نساء مصر ومسحت به كل أباطرة الشرق (أثيوبيا بالذات) وكل أدوات الكنائس.

وقبة الميرون هي أصلاً من كنيسة القديس أنبا مقار الأولى، حيث موقعها هو فوق الكنيسة في الركن البحري الغربي، بنيت خصيصاً لتكون بمثابة عُلْيَة، وبُدئ بتكريس الميرون فيها منذ أن نقل باباوات الإسكندرية مقر كرسيهم من الإسكندرية إلى دير القديس أنبا مقار بعد المجمع الخلقيدوني مباشرة، أي في نهاية القرن الخامس.

وظل الميرون المقدس يُطبخ باحتفال عظيم ومهيّب يحضره معظم الأساقفة تحت هذه القبة الطاهرة حتى منتصف القرن الرابع عشر، أي ظل ميرون مصر كلها يخرج من دير القديس أنبا مقار قرابة تسعة قرون متوالية، حيث صُنِع آخر طبخة مقدسة للميرون على يد أنبا بنيامين الثاني سنة ١٣٣٠م.

٥- كنيسة الشهيد أباسخيرون:

إسم أباسخيرون "معناه الأب القوي. وهو شهيد قبطي، شفيع مقتدر، إستشهد في زمان اضطهاد دقلديانوس بعد أن تعذب من أجل الإيمان عذابات مريضة تفوق العقل والوصف حيث شقت بطنه.

وهذه الكنيسة كانت أصلاً جزءاً من كنيسة القديس أنبا مقار من الجهة القبلية، وكانت على الأرجح هيكل الثلاثة فتية القديسين. وقد رمت بعد سقوط كنيسة القديس أنبا مقار وصارت كنيسة قائمة بمفردها. وكانت هذه الكنيسة متصلة قديماً بكنيسة أخرى قبلي الدير تسمى كنيسة المغبوط أريستوماخس التي استولى عليها جماعة الغيانيين المنشقين في وقت من الأوقات (سنة ٥٣٥م).

وتهدمت كنيسة أباسخيرون بعد ذلك ولم يبق منها إلا خورسها الغربي الذي رُمم وصار مائدة للدير. والمائدة القديمة الحالية هي جزء منها.

قبة أبا سخيرون الرائعة والباب الجميل:

هذه القبة هي إحدى روائع الفن المعماري، ومن أجمل الآثار في الدير، وهي من الطراز المسمى بالقبة الرباعية.

ويلاحظ أن القبة لا تتناسب في مركزها الهندسي مع مدخل الهيكل الأساسي المتوسط، مما يفيد أنها بنيت كرامة لهذا الهيكل بعد سقوط صحن الكنيسة. فالهيكل أقدم من القبة. وقد لوحظ أن المذبح المتوسط في الهيكل مغلق من جميع الجهات، ولم نشأ أن نفتحه، ويُعتقد أن به جسد الشهيد أبا سخيرون أو أحد الأجساد الكريمة الأخرى.

الباب الجميل:

وهو الموجود بالخورس الأول من الجهة البحرية، وكان يفتح على صحن كنيسة أبا مقار الأولى. ولكن بإقامة الجدار الفاصل، أصبح هذا الباب يحصر داخله غرفة صغيرة وكأنها مقصورة جميلة، رأينا أن نخصصها لجسد القديس يؤانس القصير أحد أولاد أبا مقار.

وقد صمم الباب بزخرفة دقيقة وبديعة من الطوب الطبيعي يلفت الأنظار. وهذا يزيد من اعتقادنا بأن كنيسة أبا سخيرون الحالية بهيكلها وقبتها الرائعة تحمل ذكرى هامة كأثر خالد، مما حدا بالمهتمين بعمارة الدير حتى في العصور الوسطى إلى إعطاء أولوية العناية لهذه الكنيسة.

(٥) الحصن:

ويعرف قديماً باسم "الجوسق" أو "البرج" أو "القستلية Castle" وهو من أقدم الآثار الهامة الموجودة بالدير، وأعظم وأضخم كافة الحصون الموجودة بالأديرة القبطية. بُني بيد عزيزة مقتدرة. فهو من جهة مبانيه وهندسته وضخامة حجارته وسمك جدرانته وهيبة أقبنيته وارتفاعه يكشف عن هوية بانية بلا أي مزيد من برهان، فقد بناه الملك زينون سنة ٤٨٢م. على يد مهندسين أرسلهم لدير أبا مقار خصيصاً لذلك، لما علم أن ابنته الأميرة إيلارية التي اختفت من قصره فجأة، قد التجأت إليه وترهبت فيه على يدي أحد تلاميذ أبا مقار وعاشت متخفية بإسم الراهب إيلاري الخصي حتى ماتت.

وقد أغدق الملك زينون بعد ذلك كثيراً على ذلك الدير وعلى كل أديرة مصر تكريماً لذكرى إبنته التي فضلت الحياة والموت مع رهبان مصر أكثر من التمتع في قصور الملوك. والحصن يتكون من ثلاثة أدوار، يفصله عن السلام المؤدية إليه سقالة متحركة كانت تُرفع بعد أن يلتجئ الرهبان إليه ويدخلون فيه.

القلالي القديمة:

وهي صف من القلالي قبلي هيكل أنبا بنيامين الحالي على الطقس الرهباني القديم، ولكنها ليست أثرية بالمعنى الصحيح فقد بنيت على أنقاض الهياكل القبلية التي تهدمت من كنيسة أنبا مقار، وهي هيكل أنبا مقار الذي بنى قبلي هيكل أنبا بنيامين، وهيكل أنبا شنودة الذي كان يليه من قبلي - وبعد أن أزيل صحن الكنيسة لهذه الهياكل أصبح من الممكن بناء هذه القلالي، وربما يكون ذلك في القرن الرابع عشر حيث يكون عمرها من عمر السور الشرقي الذي كان ملاصقاً لها.

والقلالية القديمة عبارة عن غرفة ذات قبو منخفض جداً، لها باب ضيق منخفض، وقد يكون لها شباك صغير أو لا يكون. ومن داخل هذه الغرفة المقببة غرفة أخرى ليس لها فتحات بالمرّة تسمى "محبسة" Closet حيث يصلي الراهب وينام.

المائدة :

عرف رهبان مصر آداب المائدة، ووضعوا لها الأصول على أعلى مستوى (*) ، بينما كانت أوروبا غارقة في ظلمة الجهل والبدائية. فالمائدة في الدير امتداد لوليمة الأغابي المعروفة منذ عصر الرسل، والتي شاعت في الكنيسة الأولى، حتى اندثرت بعد ذلك منذ وقت بعيد، إلا في مصر، حيث حافظت عليها الأديرة.

المكتبة:

كان لها في الأديرة شأن كبير، وبالأخص دير القديس أنبا مقار الذي اقترنت فيه التقوى والقداسة مع العلم والمعرفة، حتى قيلت فيه هذه العبارة البليغة: "إنه موطن الصلاة الدائمة والحكمة العالية". لذلك أقيمت فيه أكبر مكتب لحفظ ما تبقى من مخطوطات

المتحف:

وهو ملحق بالمكتبة في الجهة البحرية وفيه القطع الرخامية التي عثر عليها أثناء تجديد الدير مثل الأعمدة والتيجان والقواعد ولوحات المذبح التي تعتبر من أندر القطع في العالم كله، مع أحواض اللقّان والآنية الفخارية والخزفية الملونة.

للمزيد راجع بالكتاب المقرر أو على المواقع الإلكترونية التي تم اختيارها ناطقة
باللغة العربية تيسيراً على الطلاب ، ومنها :

- 1- https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AF%D9%8A%D8%B1_%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%85%D9%88%D8%B3
- 2- http://www.st-mary-alsourian.com/index.php?option=com_content&view=article&id=879&Itemid=943&lang=ar